ممدوح إبراهيم المتولى

حديث عابر
عن جرح مقيم

شعر



حديث عابر عن جرح مقيم

شعر : ممدوح المتولى
لوحة الغلاف والتصميم : الفنان إسماعيل غريب
الناشر : سما للنشر والتوزيع
المدير المسؤول : على عفيفى
الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٨



٢٩ شارع الرشيدى-متفرع من القصر العيني - القاهرة
تلفاكس : ٣٦٥٩٢٩٣
Email : afifi@netscape.net



إلى أمى
فردوس المحبة
وعنقود الفرح المضىء

أول الفرح

تكلمت البلادُ بما أحبُّ
وأمطرتْ عشبَ الغناءِ
وعطّرتنى بالبراحْ
تكلمت البلادُ ..
فقلتُ : نيلُ القلبِ
ينبعُ من عطايا دهشتى
ويعيدُ موالَ المغنى للوطن
«ياليل ياعين»
حطَّ اليمامُ علىَّ قنديلاً
ووضأنى بضوءٍ كالزلالْ
فتبينتْ لغتى سماءَ الحبِّ

طارت فى فضاءاتِ البنفسجِ
واحتوتنى نخوةٌ
عدتُ المقاتلَ منْ جديدْ
أطلقتُ للروح العنانَ
وقلتُ : أقطع هذه الصحراءَ
خلفَ جبالها قمرٌ ، ..
تحاصرهُ الشظايا
وعلىَّ أن آتيهِ بالنصرِ المبينْ
خلفَ الجبالِ مواسمٌ للعشقِ ، لى
هى لى أنا
جابَ المدى صوتٌ يقولُ :
العشقُ لك
العشقُ لك
فحملتُ مهدى فى يمينى

وجعلتُ هوجَ الريحِ أفراسى
وسكنتُ فى غزلِ العيون
صار الندى لغتى
ومفتتحَ القصيدةِ سلمًا للماءِ
واتسع الذى بالعين
فاحتجبتْ - حياءً - داخلى
حُصُنُ العبارةِ
يا هذه الصحراءُ ضيقى فى خُطاى
قد علَّمتنى دهشتى
كيف التراشقُ بالمحبةِ
والتوحدُ بالحنينْ ؟
وَسعَتْ عيونى للبسيطة كلَّها
فالأرضُ قَدْرُ سويعةٍ خضراءَ
قَدْرُ دميعةٍ سلبت دمى روحَهْ
ولقد تكلمت البلادُ بما أحبُّ

فصرتُ عاشقَها الشريدْ
من بعدِ لأى اللأى قالت:
ها أنا هَيأتُ روحى للصلاة
لمحبةٍ من بعضها الحبُ الجميل
فاستنشق القلبُ الحياة
وارتاح فى صدرِ النخيلْ

وهج البنفسج

كانَ المساءُ
وكنتُ أنتظرُ الضحى
لأصبَّ فى عينيهِ فجرْ
جاءَ الضحى وبصدرهِ
ليلُ يؤرِّقُهُ وهجرْ
فتجمعتْ أممٌ
من السحبِ الكئيبةِ
حاصرتنى بالدخانَ
فأقمتُ صَرحًا من بقايا أضلعى
وصرختُ : يا وهجَ البنفسجِ
هل يعرفُ البرئُ

أن دموعَهُ
حين استقتْ من كحلِ عينيه الغموضَ،
وغيَّمت في حُمرةِ الحزَنِ المكَابدِ
سيَّلت وجعي؟ وأَدمت رؤيتي؟
هل يعرفُ البريُّ
كم ضعفي إذا غنَّى
وكم موتي،
إذا دمعُ بعينيهِ استجارْ؟
ردَّ البنفسجُ:
يا فتى،
للفرحِ في وقتٍ جناحُ الطيرِ،
في وقتٍ له وخزُ الدموعِ
هل يأفلُ البريُّ في قيظِ الرجوعِ؟
كلُّ الجرادِ بحلقِ ذاكرتي تكوَّمَ
أي موتٍ كنتُ أخشاهُ،

استحمَّ برؤيتى
لو كانَ لى..
لشربتُ ملحَ الدمعِ أو قبَّلته
لو كان لى،
يا أيها البرىُّ أمرى
لحملتُ وجهَك
وانتبذتُ بآيتى زمنًا قصيا
فاحتملْ موتى وعجزَ محبتى
فالبحرُ يفصلُ بين وجهينا
وريحٌ صرصرٌ ملأت خزائنها شراعى
أى جمرٍ طارَ بى والقلبُ ينتظرُ
يا أيها البرىُّ عمرى هدَّهُ السفرُ
وطُحِنتُ بين اثنين فى صلدِ الرحى
عشقى،وعشقى

يا أيها البريءُ لا أشتاقُ عتقي!
هذا دمي يمتدُّ من عينيك،
حتى وقفتي
فاشهدْ عليه..
وكن له ماءَ الوضوء
ولا تزر حالَ المحبِّ
هو البقيَّةُ من أنا
فاسكب عليه النورَ
واجعله امتدادًا للسنا
وافعل بدمِّي ما بدا لك
كان البوارُ
وكنت التحفُ الضياعَ
فاشرقتْ كالنخلِ في تحنانه عيناكَ
كالأنسامِ حين تلامسُ الأشجارَ،
وشوشني نَداكَ

وهدأتنى الزلزلةْ
أو زلزلتنى وقفةُ الإشهادِ
فاستعذبتُ أن أُولد
هذا دمى، بوابةٌ للفيضِ
ممزوجٌ بطعمٍ تصوفى
سيَّلتُه نهرًا لبرىٍ يسافرُ
رغم موتى فى خلودى
زمَّلتُه لما بكى
بالعشقِ والوجعِ المداوى!
دثَّرتهُ بالارتعاشْ!
وصرختُ : يا وهجَ البنفسج،
فى موقفِ الإدراكِ أوقفنى
وغيَّب طيرَهُ عنى
فوقفتُ أنتظرُ الضحى
ليطلَّ من عينيهِ فجرْ

سلِمَتْ عيونُكِ من غبارِ الدمعِ
من لغتى..
إذا لغتى أتتْ زرقاءَ
من صمتى..
إذا صمتى تجاسرَ طيرهُ
وأتى إليكِ محملاً بنحيبهِ
من كلِ ليلٍ
أنت فيه تمارسين العشقَ
بالقلبِ الصفىْ

سَلِمَتْ عيونكِ من حريقٍ ضمَّنا
لنقَولَ بالأوجاعِ :
إن الحيَّ..
تحت مرارةِ الكتمانِ
يكبرُ بيننا،
ليظلَّ - طيَّ٪٪ القلب - حيْ

سَلِمَتْ عيونُكِ يا ابنةَ الرؤيا
منَ الترحالِ
عبرَ شوارعِ الأيامِ
ها صدرى..
وكلُّكِ فى دمى
منك - إذا ما شئتِ -
أرغَبُ فى دمٍ
صُبِّى علىْ

كان الطريقُ مغبَّرًا بالناسِ
ندخلُ عالمًا
ونجوبُ آخرَ
نشتري وجعًا، ونضحكُ!
هكذا كنا
وكان الكونُ ضيْ

طالتْ علينا بالهواجس غربةٌ
واشَّابهتْ فينا الفصولُ
فكم زمان قد مضى
ما بين تشريدٍ وطيْ

ضوَّأتني برحيقِ وجهك
واتخذت بداخلي سُبُلاً
فهاتي فضةَ الضحكاتِ
هاتي..
واملئي منها يديْ

رقصتْ دموعُ بالفؤاد
ووردَتْ بالقلبِ أحرفُ غنوةٍ
قلنا نغيِّرُ موتنا
والعهدُ أن نسعى..
إلى موتٍ سميْ!

كشفتْ ـ وليس بناقصٍ وجعى ـ
عن ليلها المنسابِ
يرفلُ بالسوادِ وجنة فيهِ!
ارتعشتُ،
وشُلَّ نهجٌ فى يدى
أسلمتُ خيلَ تمردى
ونظرتُ خطفًا،
صورةَ الوجهِ العلىْ

لَهِيَ الطفولةُ كلها عشقٌ
وماءُ العشقِ من جمرٍ
بهِ أُروى..
بهِ..
يزدانُ نبضُ الروحِ
تشريقًا وشيْ

أَمِنَ الصباحِ تخلَّقت عيناك؟
أم هو آخذٌ منك الوضاءةَ؟
هسهساتُ طفولةٍ تندى،
وتقطرُ منهما،
أتوضئين الضوءَ بالنظراتِ؟
ضاعتْ مهجتي
ومحبتي طيرُ شجيْ

كيف الضياءُ..
وبي أسىً متخثرٌ؟
دمعي توهجَ
والصحابُ تفرقوا
من يؤنِسُ الأيامَ بالزمنِ الرَّديْ؟

كيف احتملتُ نداوةَ الفرحِ الوديعِ؟
وصعقةَ الطيرِ الوجيعِ؟
أهكذا..
شجرُ الحليبِ مسيجٌ
بالشوكِ والموتِ العفيْ!

يا مهرةً بالروحِ صاهلةً
وحاملةً خُطى حلمي
وباعثتي من التحريقِ،

راحلتي..
إلى لغةٍ تزاوجُ بيننا
لنذوبَ في نهرٍ ندىْ

سلَمَتْ عيونُكِ من دموعٍ
قبلَتْ موتي
دعيني وامرحي أنتِ
وخلِّ الموتَ خلِّيه
يصولُ بخافقي ويجولُ فيْ

سلَمَتْ عيونُك فالمرافئ لا تبينُ
وليس لي عمرٌ يُعادُ
فهاجري مني
أنا قتَلْتُني..
لما حلمتُ بواحةِ النعناعِ
بامرأةٍ هي التفاحُ والعطرُ الشهيْ

ما اسم الصبية؟
حين حطَّ السيلُ كانت ترتدى حلمًا
وتهربُ من سُبات الواهمينَ
وحين حطَّ الليلُ لاحت كالنبؤة
غسَّلت عينىَّ من رمدٍ
وألقتْ حُسنها بالروحِ
شقَّت جدولاً بالصدرِ

فانساب الحنينُ
وهاجَ بالعينِ الفرحْ
هل وردُ حلمٍ سالَ؟
أم سيفُ التذكرِ نصلهُ بالقلبِ جالَ
وقطّع الأوصالْ؟
هى عند شطِّ الصبحِ تلهو باللآلئْ ،
وتظل تصنعُ من محارِ الشّط
شيئًا كالفراشة
ثم تلبسُ حسنهَا شمسًا
وتشرقُ فى فضاءِ الذاكرة
لتردَّ لى..
ما غاب من صفو السنينِ الغابرة
ما اسم الصبيةِ؟

يهتزُّ بي شجرٌ تشاغلهُ عيونك
تسَّاقطُ الألوانُ من عينيَّ
يختلطُ البنفسجُ بالخضارِ
ويسبِّح الوردي
أهمسُ : يا صبية
ما اسم وجهي حين يكسوهُ التجلي؟
ما اسمِ صدري حين يسكنهُ العطشْ؟
هل طيَّرَ العشقُ المحبةَ بالفؤادْ؟
أم حاصرتهُ الأسئلةْ؟
واشَّابكت - كالشوكِ - أحلامي
بغزلِ شواردي؟
واندحتُ في لغطِ المجازِ؟

ضاقتْ عليَّ حكايتى..
أبحرتُ فى ظنيْو ولازمنى الدوارْ
أسنِ المدادُ!
ولمِ يبن لصبيتى رسمٌ
وغلَّفنى البوارْ
هل أنت ماءُ البوحِ..
أم جدبُ الهواجسِ والقفار؟
سيَّرتُ وجهَ الروح نحوك
واستعنتُ على احتمالِ القَيظِ
بالصبرِ الجميلْ
ها قد قرأتُ الفاتحةْ
ورميتُ عن جسدى الحصار
لأمرَّ من ظمأى
وآخذ من تجليك اخضرارى
من شرودِك لهجتى
ومن ائتلافِ الكحلِ بالعينين
آخذُ وجهتىَ وجنونى

شجَّرتُ صدرى بالمحبةِ
واستقمتُ على صراطَ الصمتِ
لم أعلنْ زواجَ الروحِ بالرؤيا ؛
ولم أفصحْ عن الملكِ المحاورِ دهشتى
خبَّأته فى طلعةِ الضوءِ البهىِّ
وبين أمشاجِ الدمِ الوهاجِ
تحت وسادةِ الغزلِ المشعِ قصائدًا

ملأى بفيضِ النورِ والماءِ الجموحِ ؛
قصائدًا من لحم طيرٍ لا يحطُّ
له الفضاءُ
ولى أنا شوكُ ارتحالِ الهمِّ
بالقلبِ المراقْ
هل يستريحُ الوردُ فى وهمٍ نما بالصدرِ؟
صافحتُ الغروب
وسكنتُ ضعفَ الحلم
راودتُ التغربَ
واستقمتُ على صراطِ الصمتِ
أنقشُ وجهَ قابلتى
وأحفرُ معجزاتِ العشقِ فى جزعِ الحجرْ
كانت تُجمِّل طيفَها برحيقِها الرَّواغِ

تركضُ مهرةٌ في مدٍّ أوهامي ، وتمرحُ
قلت : أكتُمها عن الشعرِ المراوغِ
أصطفيها في مساءاتِ الشتاءِ حكايةً
بالقلبِ تفرشُ دفئَها
أو قلتُ :
أصنعُ من عجينةِ عشقِها لغةً
وأجعلُ وجهتي للنهرِ
أكتبها على سفحِ العذوبةِ
آيةَ الإشراقِ
سبعةَ أحرفٍ حُبلى بأقمارٍ وأكتبها قدرْ
هل أغصنُ الجمرِ
المليئةُ باحتراقِ العمرِ
ترمي طرحَها بالعينِ

أحجاراً
وملحَ بدايةٍ مقطوعةِ النهدينِ
من جزرٍ؟
فكيف أطيرُ؟
تملؤني سماءُ بالغناء
وبي بخورُ طيبُ الترتيل
هل وحدي ألامسُ كهرباءَ الحلمِ
أُصعقُ بالخضارِ؟
أم الغزالةُ تصطلي - مثلي - بطلقِ النورِ؟
يا لك من دمٍ
أُهريق فوق رمالِ وهمٍ
لا تباركه الغزالةَ بالمجئْ ؛
تمشي بلا كللٍ طريقَ الجرح
تنفرطُ اشتهاءً للملاحةِ والحليبِ

لمهرة ؛
تهتزُّ فوق هضابها
وتعُبُّ من أفراحها وجعًا
يضيءُ الدربَ ، يا لكَ من دمٍ
تتكورُ الأحلامُ فيه
وفيه تمرحُ لؤلؤاتُ السرِّ
تصهلُ مهرةُ الإنشاد:
قد نرتادُ فى عزِّ الضحى أفقًا
ونحصدُ سنبلات الضوءِ
تأتي شمسُنا لغةً
تصدُّ الريحَ
تصهلُ مهرةُ الإنشاد:
قد أُثْقِلْتُ بالميلادِ
واستوحشتُ ما بالصمتِ من خبلٍ

وهذى صفحتى - من غير سوء - كالنهارْ
فاكتبْ أغانيك الشريدةَ
قلتُ : كلِّى شاردٌ
والروحُ تصعدْ

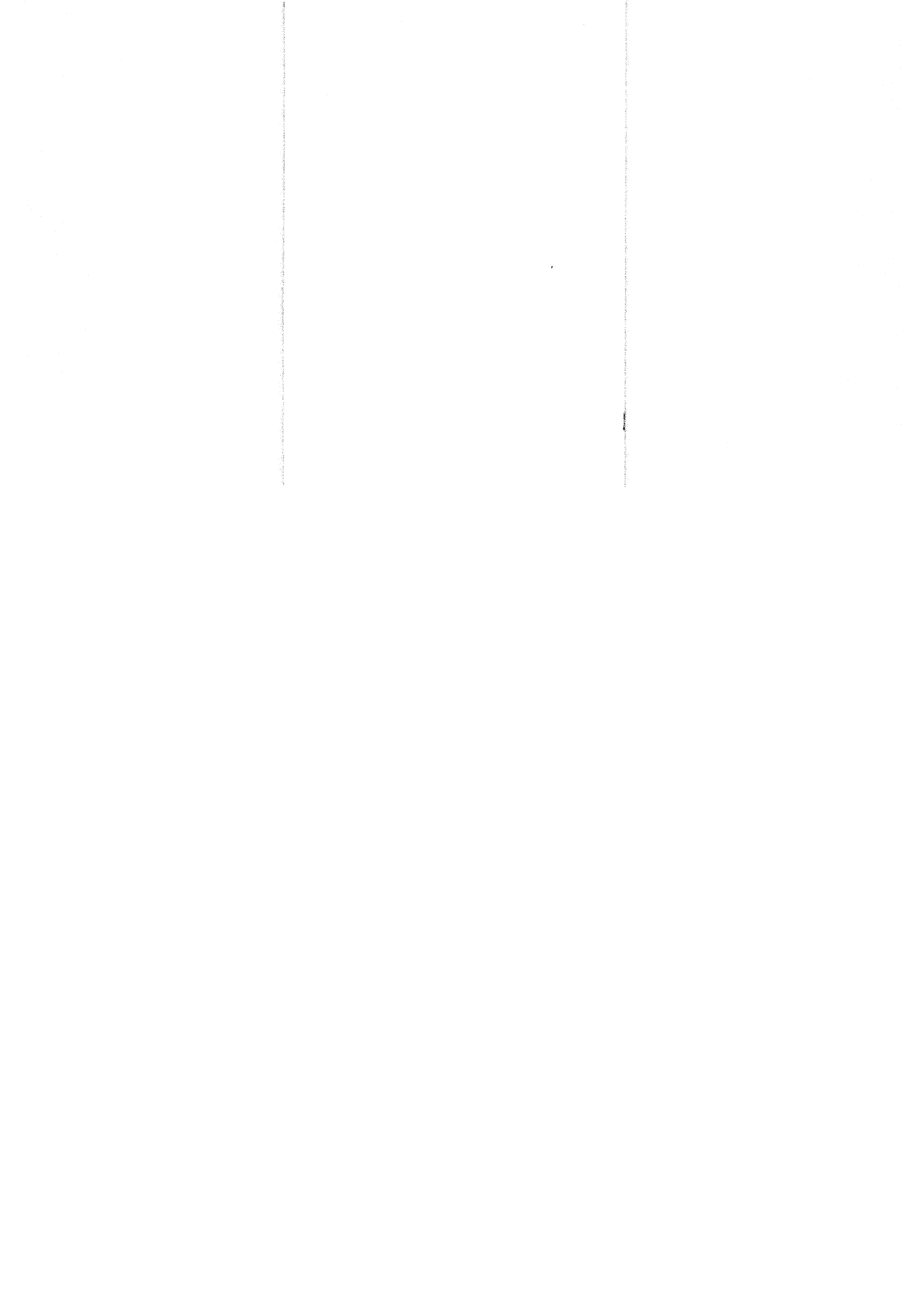
جرح للإقامة

هل ذا صهيلٌ فى سماءِ القلبِ
أم هذا خوارْ؟
يسَّاءَلُ الرجلُ المدوَّم بالدوارْ
ويظلُّ فى رهج الحوارْ ؛
عن مستقرِ الروح يبحثُ
عن بلادٍ للإقامة
ويظلُّ يدمعُ: يا يمامةْ

الجرحُ فاض ولم يعُدْ بالروحِ ماءْ
القيظُ دمَّلَ رؤيتى ..
والحرفُ صارَ كدميةٍ ،
حُلْمى تَخَطَّفَهُ الفناءْ
«إيشانُ» تهربُ من حقولِ القمحِ ..
تْطَحَنُ أَدْمُعى ..
وتفكُّ طيرَ الليلِ ينهشُنى
وتغرزُ فى دَمى لغةَ البكاءْ
قدْ صَيَّرتْ عُمْرى خريفاً
غيَّبَتْ فَرَحى ..
وياما كُنْتُ أَعْشَقُهُ - المطرْ
جَفَّتْ بى الأشجارُ
واشْتَعَلَتْ دموعُ الروحِ ..
صارتْ مِنْ سَقَرْ
قَدَعى الْحصى يمشى على وَجْهى

ويحفرُ أحرفًا ملأى برائحةِ الضجرْ
«إبشانُ» تنأى..
وارتعاشُ الموتِ يسرى فى تفاصيلِ الجسدْ
الحلمُ فرفرَ تحت سكينِ التوجسِ
أنت راحلةٌ..
وصدرى مثقلٌ بالجوع،
يحملُ جرحَهُ..
ويئنُّ من وخزِ الرؤى، يُمحى..
ولم يقصصْ رؤاه على أحد
غامتْ مواقيتُ الربيعِ
وأينما وليتُ قلبى كان وجهكِ..
شاردًا عنى يُباعده الأبدْ
«إبشانُ»: هل بالغيبِ لى فرحٌ؟
أم الأحزانُ نصلُ بىَ يباركنى؟..
وراحلتى كبدْ؟

إبشان قرية الشاعر حيث ولد وحيث يقيم



من ليس لى سيفُ علىَّ
وأنتِ تجوالى
وحدٌّ ذؤابةَ الموتِ المقدِّرْ
أيناك؟ أهتَفُ
والفضَاءُ يضيقُ فى أفقى
وجدبُ مخاوفى يمطرْ
سطعَ الأفولُ ..
وأشرقتْ بالقلبِ غُربتُه ؛
المياهُ تيبَّستْ

والملكُ لا يأتى
وصمتُ الهمسِ يزأرُ
قاسٍ عليَّ الجوعُ
أقضمُ حسرتى
وألوكُ رملَ حكايتى
ويهيجُ بى شبحٌ يقول:
الملكُ لا يأتى لقلبٍ هاجرتْ منه الخيولْ
الريحُ ترعدُ والدجى نصلُ
وفوق الدربِ غولْ
كم شالنى دربٌ ودربٌ حطَّنى
والليلُ جنىٌ تطاولَ
صاحَ بى :
ما لم تحَطْ علمًا به
أن المدينةَ حولها هَوْلٌ
وحراسُ المليكةِ من وحوشِ الطيرِ

يزدحمون كالعسكرْ
والياء - حرف الياء - كنتُ أضفتُ للملكوتِ
شردَّنى وأنَّ الصدرَ ،
واشتعلَ الأسى أكثرْ

سعيتُ إليكِ فى زمنٍ يصدُّ الماءَ
سبعةَ أبحرٍ أبحرتُ
كَلَّ الموجُ منْ سُفنى ووهمُ التيهِ غلَّفنى
أرى مدنًا من الأشباحِ ، برقًا صاعدًا
والرعدُ عفريتٌ تخطَّفَ خطوتى
قد باعنى الملاحُ وهمَ العمرِ
أملَّنى بوجهِ حكايةٍ خضراءَ
بين عيونها قمرُ
على أبوابها حورُ القصائدِ ينتظرن
وأنت بلقيسُ القصائدِ
فوق هامِ الحورِ تنتشرين كالعنبرْ

حطَّ الرحالَ القلبُ قُربَ شُجيرةٍ ؛
كانت تئنُّ
وحولها نهرٌ من الدمع ..
انتبهتُ على فتىً كالنجمِ
يصعدُ من سباتِ الموتِ
قرَّبني إلى عينيهِ
فانتبهتْ عيوني، كنتُهُ
ورأيتُ نهرَ الدمعِ أخضرْ
من مائه روَّيتُ صدري واغتسلتُ
أقمتُ في جريانه
ما لم أُحَطْ علماً به :
أن الحكايةَ شمسُهَا وهمٌ
وأن الوهمَ لا يثمرْ

قبَّلتُ عندَ الصبح سنبلتىْ
وقرأتُ ما بالصدرِ من لغةِ النهارْ
هل بينَّت لى وجهتى
فتكلمَ النورسْ؟

لكأن تنزلت الملائكُ
حين قالَ القلبُ للزيتونِ:
أنتَ الماءُ
دع ما بى من الفردوس يصَّاعدْ
دع أرضىَ الظمأى من الأقمارِ تشربْ

فاضتْ عيونُ الحلمِ فانسابَ النَّدى
وازَّلزلَ الضوءُ الموزَّعُ بالضلوعْ
كشَّفتُ ضعفى للمياهِ
فأزهرتْ بى قوتى
وسمعتُ صلصلةَ الحروفِ تهلُّ
من خلف الهضابْ
لكأنَّ جيشَ ابن الوليدِ تشكَّلتْ منه الأمومةُ
لم أقلْ: إنى أُحِبُك
كنتُ أصنعُ مسبحَةْ
وأطهِّر الحباتِ من وجع السكوتْ

إبلٌ محملةٌ بأنهارٍ تمرُّ الآن من صحوى
وأمطارٌ تدقُّ النومَ
أسعى كى أرى رمحًا يصافحُ صدرَ موَّالى ،
ويبدأ رحلةَ التكوينِ ، يُنشئُنى

ويأخذُنى إلى امرأةٍ تشابه نصفُها بالموجِ
يزخرُ نصفُها الثانى بهولِ الريح
من جسد الأسى قُدَّتْ
فلم تعرفْ سوى لغةِ الوداعِ
تجمَّلتْ بالجمرِ واللهبِ المطرزِ بالسعيرِ
تطايرتْ نحوى حجارتُه
وجاءتْ من قساوتهِ الطيورْ!

وجعُ المخاضِ يهزُّ بنيانى
فأسبحُ فى تفاصيلِ الوهنْ
ألجُ الحروفَ
وأصطفى صدقَ الداخلِ
ثم أُعلنُ توبتى، واللهُ لى
ما قلت حين تكلمت روحى: أُحبُكِ
كنتُ أخرجُ بالجيوشِ من المدينةِ

قاصداً وجهَ السماءِ وكنتُ أنشرُ دعوتي :
للقلبِ مُلكُ الحلمِ ؛
أشدو والغناءُ يطلُّ من عينِ البكاءْ

جسدُ الصباحِ محملاً بالشمسِ
حطَّ على فمي
وتملكتني جرأةُ الترتيلِ
هل بعثٌ أتى والرزق فاضَ
أم البدايةُ كللتني بالوهجْ؟
ولكلِ بارقةٍ مقامْ
وأنتِ كالجناتِ تعشقُ مَنْ أحبَّ الياسمينْ
خلقتُه مني حروفًا
والحروفُ تخلَّقت بالروحِ من وجعِ السنينْ
لا لم أقل أني أُحبُك ، كنتُ أبدأ هجرتي
وأطرِّزُ الرؤيا بخيلِ الفاتحينْ

الشمسُ في كبدِ الكتابةِ ظلمةٌ
والنبضُ موتٌ ؛
واليقينُ سرابْ
الطيرُ ينهشُ رؤيتي
والأبجديةُ لا تطاوعُ وجهتي
والشوكُ سيَّج نكهةَ الأحبابْ
لغتي ضبابٌ ؛
والقيامةُ في صدى موتي تزمجرُ بالطلوعْ
هذا جنوني فاحتملْ
أو خضْ بعشقك في جموحي
واكتمل طيراً يباركهُ الفضاءْ

سميتكَ الجميزَ أقسمُ لا كذبْ
وأقمتُ فى صدرى مدىً
لمواسمِ الطرح المطرَّزِ بالغناءْ
فاحملْ زلالَ الصفوِ
وامرحْ فى وريدى :
لكَ فى كراتِ الدم نعناعٌ ونهرٌ من زمرد
ولكَ البقيةُ منَ خطى نبضى وأحوالى
لكأننى كنتُ اختزنتُ بداوتى
حتى أُحبَّكَ هكذا كالريحِ
كالعصفِ المباغتْ
لكأننى من بعد جدبٍ
أستفيقُ على مروجٍ مزهراتٍ
عشبُها من فضةِ الرؤيا
وقطرُ الماءِ يأتيها فراتًا من ذهبْ
دعنى أُكلِّمَ خاطرى عنى

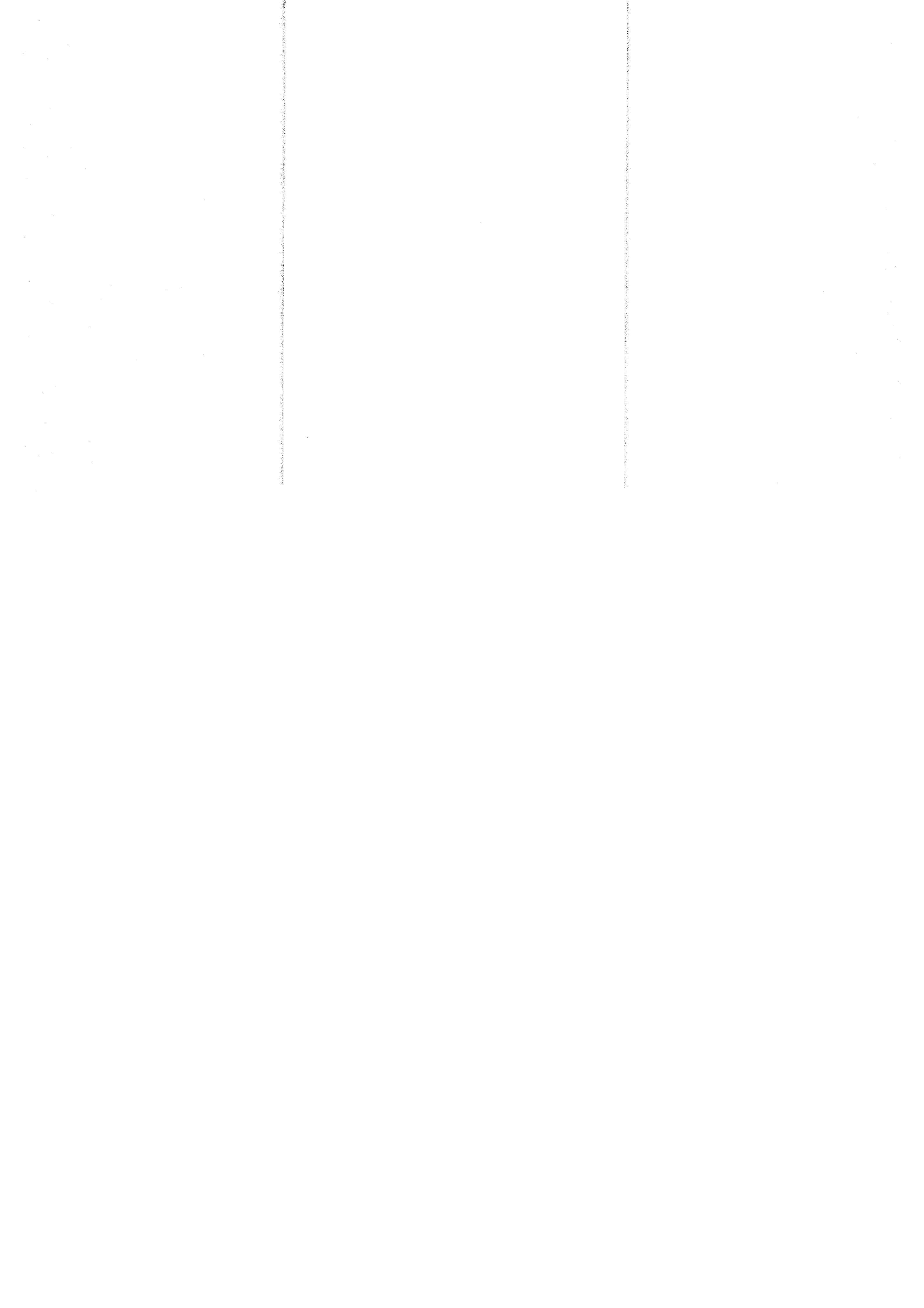
وأكتبُ بالمداد العنبريِّ
حكايةَ الولد الخجولْ
علَّ التمرُّدَ يحتويني ساعةً
فأهد صرحَ الصمتِ ،
أمرقَ من بوارِ الموتِ
أجمعَ من دروبِ الوقتِ :
نبضَ طفولةٍ سُرِقَتْ
وشرخَ صبابةٍ وُئدتْ
وأغنيةً على ثغرِ الفتى صُلبتْ
دعني أجرِّبْ أن أعيشَ
وأن أُعيدَ صياغتي
وأفكْ طلَّسْمَ البدايةِ:
نخلةٌ،
شقَّت جدارَ البيتِ ليلةَ مولدي
فتوضأ الأبُ بالدعاءِ

وقال جدِّى باسمًا :
يا فاطمة : هذا جدارُ البيتِ شاركك المخاض
فاغرورقتْ أمى كلامًا طيِّبَ المعنى
وغابتْ عن عيونِ الحاضرين
هل من صهيلِ الطلقِ؟
أم غابتْ تبسملُ دهشةً ..
لتَوافقِ السعدِ الجميل؟
ما الفرقُ ـ قالت روحُها ـ :
بين الدمِ المنزوع من جسدى
وبين التمرِ من لحمِ النخيل؟
سميْتُكَ الجميزَ أقسمُ لا كَذِبْ
إذ كنتُ طفلاً لا يبارحُ خضرةَ الطينِ الحنونْ
ولكم شغُلتُ بسرٍّ فصِّ التوتِ
والقطنِ الملوزِ
دهشتى فاحتْ

لما عرفتُ عجائزَ الأشجارِ
والثمرَ المشابه للخلودْ
يا كم ألفتُ تشردى
خلفَ انعقاد السرِّ
ما بين الفراشة والرحيقْ ،
خلفَ اختلاف الليلِ فى أحواله :
قمرٌ يلازمهُ ليالى
ثم يأسرهُ الظلامْ
ويمرُّ ركبُ العمرِ جرحًا إثر عام
حتى رأيتُ الرملَ مدًا من تضاريسِ الغموض
وألفت طيرَ الأبجدية
قلتُ يكشفُ لى عن الأرضِ الصبيَّةِ
دلَّنى طيرى على بلدٍ بعيدْ
يا كم مشيتُ إلى ثراها لم أصلْ
فى الليلِ أحملُها كتابًا

فى حياةِ الشمسِ أسعى نحوَها ؛
يا كم سَعيتُ ولم أَصلْ
هل أنتِ من شقَّتْ جدارَ البيتِ ؟
كانتْ فَى كتابِ الغيبِ قد سكَنَتْ
ولاحتْ
والفتى يمضى لناحيةِ الغروبْ
يا وى من خلطِ الجراَحْ
جرحٌ يمُيتُ القلبَ
ينفخُ فيه روحَ الفرح جرحْ
سميتُهُ الجميزَ ثالثة
وأقسم لا كَذِبْ
وله استويتُ بَساطَ عشبٍ
كى يقيمْ

تقاسيم على وتر الجرح



ما لم نجدْ أرضاً لنا
فالحلمُ أرحب ما يكون
ما لم نجدْ حلماً لنا
فالظنَّ تُنطقه السنون
ما لم نجدْ ظنًا لنا
فالوهمَ نُسكنهُ العيون
ما لم نجدْ وهماً لنا
فلنا مساحاتُ الجنون

شمسٌ بليلِ الحلمِ غاربةٌ
وضحكةُ موجَعٍ
تنسابُ فى عينين من ماءٍ ومن زيتون
هذى فصولُ الموت تمطرُ فارتعش
واكتب وصاياك الأخيرةْ
لا أنت أولُ عاشقٍ ينداحُ فى لجج السغبْ ؛
لا أنت آخرُ عاشقٍ يمتاح أمطارَ النوبْ
يا أيها الحلمُ المحملُ بالرطبْ :
أكتب وصاياكَ الأخيرةَ
لا عصا موسى لديكَ
ولا لديك جسارة الفرعونِ
فاستسلمْ لهجرٍ
وليكن هجرًا جميلاً

وماذا يقولُ الكلامُ إذنْ
وفى العين كلُّ الندى والحزنْ
وماذا يفيدُ اختصار الزمنْ
وبالروح منكِ الضُّحى والشجنْ
وماذا،
وماذا،
وقد صرتِ بى صبوتى،
والوهنْ

وجه

هو ليس وجهى ما أرى
فوق المرايا
هو ليس وجهى
وجهى ضياءُ العشقِ يسكُنُهُ
وتسكُنُهُ الحكايا
وجْهى ضُحى لغةٍ ،
ومرسى نَوْرَسٍ ،
ملكوتُ من حُلْمٍ
وعرشٌ ..
تاجُهُ،
فى عين سيدةِ الصبايا

زيارة

ويمرُّ من موتٍ
ويمضي نحو مَوتْ
هو ذا يطاوعُ قلبهُ
يمشي بلا عينٍ وصَوتْ
يمشي بسروالِ الأسى
وكلامهُ من نَسْجِ كَبتْ
يمشي ..
ويرجو جُرْحُهُ :
لو كلها الأيام «سَبْت»!

قناعة

لك النصف منِّى
والَقلبُ كلُّهْ
ولى نصفُ حُلمكِ
لا تمنعيهْ
وللموتِ يا طفلتى فلنكُنْ
وللخُلْد،
كلٍّ الذى نحنُ فيهْ

غربة

للمرة المليون بعد الموت أكتمُ صرختى
وأقولُ للزلزالِ يا زلزالُ قفْ
هى فوقَ هامَ العمرِ واقفةٌ
وتمضى خُطوتى ؛
تمضى لنحو الخلفْ
للمرةِ المليونِ بعد الموتِ ألفْ
يرجِّنى قلبى
وأرجُّهُ : أن قفْ
قدرٌ عليك ولى أنا
أن للفنا نمضى
ونُقْبَرُ دون إلفْ

أسيرُ لا أرى أَحَدْ
سوى دمى مبعثراً
على مفارقِ الجسدْ
سوى مسدٍّ
يمد بين رؤيتى وفرحةِ الأبدْ
يبدِّل اليقينَ حيرةً
ويحرقُ الفؤادَ والمددْ
سوى كمدْ
يئنُّ بين أضلعى ، يُمزقُ الجَلَدْ
وغيرَ صاحبٍ
يظلُّ إذ يبينُ راحلاً
ليسكنَ الفضاءَ
والفضاءُ لا يُحَدْ

دعاء

يا صاحبَ السفينةْ
سألتكَ الأمانَ والسكينةْ
سألتكَ البراءةْ
ولحظةً مُضاءةْ
بالصفح والكرمْ
سألتكَ القلمْ
فإن بى ألم
أود لو نثرتُهُ غناءْ
يعلِّم الفضاءَ كيف يتسعْ
وكيف يصبحُ الوجعْ
بدايةَ الصهيل بالفرْح
ومهرةً، تجئُ بالإضاءةْ

فاصلة

فى حضرة الضوءِ كنَّا
وكنَّا نطيرُ طيرَ الحوارْ
همستُ : أُحِبُكِ
قالت :
وما بيننا من جدار؟
فقلتُ : أُحِبُكِ
قالت :
يُسيجُ بوحي سياج الغبارْ
هتفت : أُحِبُكِ
قالت :
وحبُك بالروح، ماءٌ ونارْ

قُضي الأمرُ..
فما عاد حُلمُكَ حلوُ الملامحِ
ما عاد طيبُ الرؤى منهلكْ
قُضي الأمرُ..
وقلبُك هذا الصغيرُ هلكْ
قُضي الأمرُ..
ولا راد لامرأةٍ..
من فضاء الفضيلة
أن تبعثَ الروحَ فيكَ
لكي تقتلكْ!

حدوتة

رجلٌ تقتَّلَ وامرأة
والغيثُ من رطبِ اللهبْ
وبكلِ كتمانِ التعبْ،
يتكلمان
رجلٌ تقتَّلَ بامرأةْ
هى من لحاءِ الموج
والرجلُ المقتَلُ من رهجْ
وبدايةُ الفرح الهوانْ
فبأى شطئانِ المحبة، يحلُمان؟

محبة

البحرُ أولُ عاشقٍ للأرضِ
عاشرَ ضَعفها
وأحبَّ من ترياقِها رملَ الشطوطْ ؛
البحرُ شيخٌ
لا تجفُّ به الطفولةُ
عاشقٌ للشَعرِ والسفرِ البعيدْ
هو لا يباعدهُ عن الترحالِ أحزانٌ ،
ولا يثنيهِ عن عشقٍ أساهْ
مرَّت به أَممٌ
وشاختْ أنجمٌ
والبحرُ نفسُ البحرِ
لم تطرفْ لهُ عينٌ

ولم يذهبْ صباه
فترفقوا بالبحرِ
إنَّ البحرَ وردةُ عاشقٍ
والبحرُ من عشقى دماه

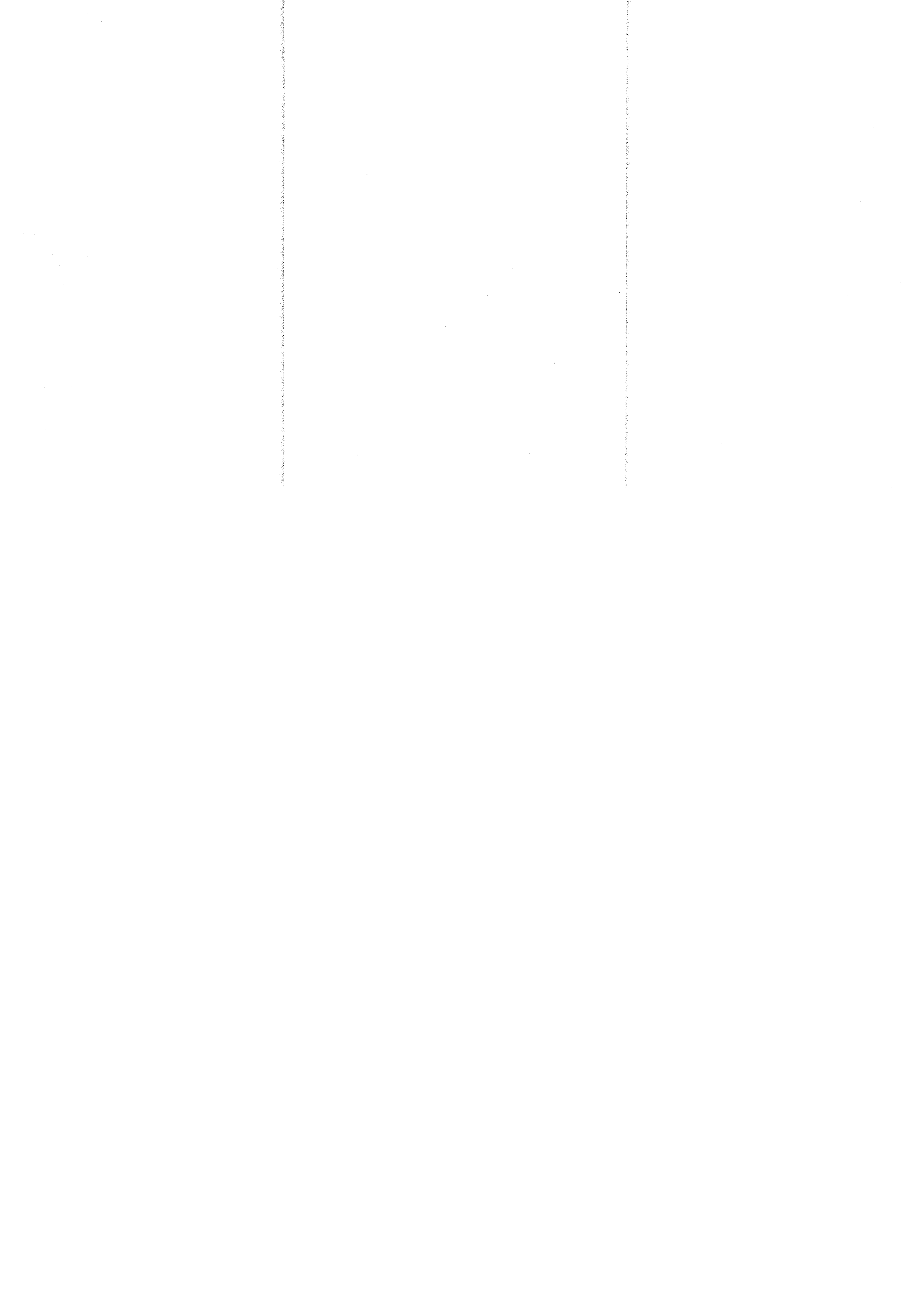
بحث

الصبحُ يُشْهِرُ غنوةَ العصفور
يُوقظُ رَقْدَتى
ويشدُّ نبضَ الروح
نحو عرائس الشّدْوِ النحاسىِّ النغمْ
هل آن للصوتِ المعفَّر بالصدأ ؛
أن يستعيدَ صَباحَهُ؟،
ويفرّ منْ جدْبِ العَدَمْ؟
إنَّها الأشجارُ تفتحُ صدْرها
وتردُّ قِرْط الظلِّ
يُعطيه الفَتى شكْلَ البلادِ
ويسكُنُ الدِّلْتَا
كثيرًا، ما تَسكَّعَ صاحبى،
فى حُلكة الأحزانِ بحثًا عن وطن

مرآة

الماءُ تعكسهُ الوجوه
ومياهُ صدْرِكِ ـ فوق وجهي ـ
بسمةٌ، من رِيَح طيبْ
لِمْ لا تحاولُ يا غريبْ
أنْ تلمَس الرؤيا
وتسكن،..
فى أهازيج الحليبْ؟

محملةٌ حروفى بالرهق
والسَّعى فى ليلِ الأرق
وبحمْحَمات العشقِ
والشوقِ الشرودْ
منَّيتُ قلبى بالصعود ، وتركتُهُ يمشى
منيتُه بشواطئِ الرِّمْشِ
والعيشِ فى غيطِ السنابلْ
لم أدر أنَّ الرمشَ يقتلهُ
والغيط من حلُمٍ مُخاتلْ
هو قاتلى
وكيف يسعى ـ بافتتان السَّعى ـ
مقتولٌ لقاتلْ؟



حصار

ليلٌ يجمِّعُ جمرَهُ
ويحاصرُ الضوءَ الوليدْ
ليلٌ «كموج البحر» عربيدٌ
يحاصرُ نبتَ فلٍّ بالوريدْ
ويسدُّ كوةَ خفقةٍ بالروحِ ؛
أنبتها الصباحْ
يا ليلُ قد تَعِبَ الفؤادُ
من الجراحْ
وأحبَّ لو يقضى بقيةَ عمره
فى ظلِّ أشجارِ الفرح
يُروى من الكحلِ المكحل ،
من شذى عينينِ

أُقسمُ فيهما سرُّ المحارْ
عينين من قمرٍ صبوحْ
قمرٌ يطلُّ من الحكايات البريئةِ
من طفولةِ عاشقٍ للشَّوفِ
يسعدُ كلما
كثرتْ جراحاتُ الطريق
فالعشقُ خرقَةُ من توحَّد قلبُهُ
بالارتحالْ
وتساقطتْ من عينهِ لغةٌ
تُحسُّ ولا تقالْ
والعشقُ بى
طير كأنسام البريقْ

تلبَّسَهُ الجِّنُ؟
أم زرقةٌ كشَّفَتْ سرَّهَا؟
أم الغيثُ من بعدِ جدبٍ يحطُّ؟
أم الأبجديةُ قد غَسَّلَتْهُ بماءِ التوحدِ والإنعتاق؟
هو الآن يشربُ ؛
من نهرِ نورٍ
ويُمسكُ حبلَ الضياءِ الكليمْ
كأنَّ التي شاغلتْ صَمتَهُ
من الدفءِ قُدَّتْ
وألقت به لَلجنونِ القويم!
كأنِّى به ـ دونَ قصدٍ ـ مضى
إلى جنةٍ أو جحيمْ

كأنِّى بهِ..
على جسرِ أحلامهِ
يكوِّر شمسًا بملءِ يديهِ
وينأى عن الأرضِ والعالمين
كأنَّ التى شاغلتْ صمتَهُ
تبللُ فيه الرؤى باليقين
فيسبحُ فى فيضِ لألائهِ
ويفرحُ بالوجدِ كالعارفين

تفتحت الرؤى لأناملي
وتلامستْ بأنامل الطيرِ الأمينْ
كنا نرتِّل ما تيسَّرَ من حنينْ
قالت : صراعُ الحلمِ..
شدَّ يمامتي نحوَ النهايةِ
قلتُ : يا أنت
إن الحديثَ لديَّ عن جرحٍ مقيمْ
عن خمسة تعلو هضابَ الأربعين
قالت :
وما ذنبُ الجنين؟
أيذوقُ كأسَ فطامه،
قبلَ المخاضْ!؟

أيظلُّ فى رحمِ ارتعاشِ أناملى؟
وأظلُّ دونكَ فى هجيرِ الأسئلة؟
قلتُ : المسافةُ بين ضعفى واحتوائِك قاتلةْ
قالتْ : وماذا؟
لم أجبْ
لكن دمعًا ساخنًا من عينِ روحى
بلَّ صدرى، فانفجر !

يمامة

أصعدُ سلَّمَ التسبيحِ لامرأةٍ وحلمْ
وأقولُ للوقتِ انتظرْ ، يا فجرُ قمْ
نحو السماءَ أسيرُ ممتطيًا غنائى
وأشدُّ حبلَ الضوءِ للصبحِ الجديدْ
هى كاليمامةِ لا تزيدْ
وأنا فضاءُ الفرحِ والعشقِ النبى
لو أنها طارتْ إلىَّ
لحرثتُ وجهَ الروحِ أرضًا للصلاةْ
وجعلتُ من لحمى مياهْ
وأنرت ليلَ الليلِ بالحلمِ الوفىْ
هى كاليمامة،
حُمِّلتْ بأمانة الشدو
هى حلوةُ الترتيل،

تمشى فى سهولِ الفرحِ والوجدِ
تمشى كما نهرٍ يسيرْ
وأنا يذوبنى العطشْ
قد بلَّنى ظمأى بصهدٍ من هجيرْ
وأباحَ روحى للغبشْ
هى كاليمامة، رسمُها روحٌ،
وعيناها رماحْ
مسكتْ لجامَ الضوءِ وامتطتِ الصباحْ
جاءتْ إلىَّ وكنتُ فى جدبٍ وموتْ
روَّت دمى بالعشقِ واسْتسْقَتْ حيائى
خبأتُها عنِّى فبانتْ فى غنائى
أطلقتُ فى صدرى صداها والصهيلْ
وشربتُ فيض صفائها حتى علَوْتْ
والله إن طلوعها بالصدرِ فُلْ
الله لو كانت تجئ لكى تظلْ

يتحسسُ جسدَ الأشجارْ
ويهزُّ غصونَ الدمع
فتسَّاقط - كالحورِ - الأشعارْ
يسألُ واحدةً عن عبقِ البحرِ
ويسألُ أخرى
عن لغة الأنهارْ
عن وجدِ الوردِ
وعن أحبابٍ - فى عشٍّ الضوءِ -
على شجرِ التذكارْ

يبلُّ الصدرَ بشمسٍ كالحناءِ
ويبذرُ شهقةَ عشقٍ
يلعق وهجَ الرملِ

ويرسمُ ـ من لغةٍ تغلى ـ
روحًا لامرأةٍ كالنعناعِ
تلاحقهُ بالصهدِ
فيعلنُ :
للأشجارِ ملامحُ وجه المحبوبةِ
ولطعمِ العشقِ فضاءُ الشوقِ
ورائحةُ الأذكار

يرسمُ روحًا لامرأةٍ
من ألقِ الوردِ
ومن طميٍ قُدَّ من الوجدِ
فصارتْ وردًا وقصائدَ
صارتْ بالصدرِ بخورًا
وغزالةَ لغةٍ
تحفرُ فى لحمِ الروحِ مسارًا للفرحِ
وتطلقُ للحلمِ لجامَ الرَّمحِ

يكابدُ :
يا امرأةً من ظلِّ الفيضِ
ومن صهدِ الأسرارْ
من أيِّ بلادِ الجنة جئت؟
ومن أيِّ فضاءاتِ الأنهارْ؟

يُسكبُ في سبحات الدهشة عطرًا
ويدثّر وجهَ الرعشةِ بالليمونْ
يفترشُ الأزرقَ ذاكرةً،
تسبحُ في ملكوتِ الخضرةِ،
تتشكّلُ وجهَ مياهٍ،
ونبوءةَ طيرٍ:
بالأفقِ فضاءٌ من عسلِ العشقِ
ومن رقراقِ البوحِ،
فضاءٌ من ولهِ الروحِ
ومن عبقِ الأشعارْ،

الجرحُ يكابدُ،
والأبوابُ مغلَّقةٌ
والقلبُ تسيِّجهُ الأسوارْ
يشربُ تنهيدَ الصمتِ
ويقسمُ :
لى بالأفقِ نهارٌ يستيقظُ
لى بالبحرِ زمردةٌ
يتكشَّفُ عنها الضوءُ
فتبدو من ألقِ الحُسنِ
ومن نعمِ الحكمةِ
آيةَ جناتٍ
يتوضأ فيها العشقُ
بذاكرةِ الأشجارْ

نهايات الفرح

ـ ١ ـ

كان احتمالُ الموت أيسرَ من حكاياتِ الخبلْ
فاصلبْ رؤاك فلا أَمل
واطفئ بنارِ الصمت ماءَ الإنتشاءْ
واكتبْ إذا سألوكَ عنكَ :
حكايتي وجعٌ وداء
والقدسُ مرتْ من هنا
سكنتْ بوادٍ :
غير ذى زرعٍ وماء

ـ ٢ ـ

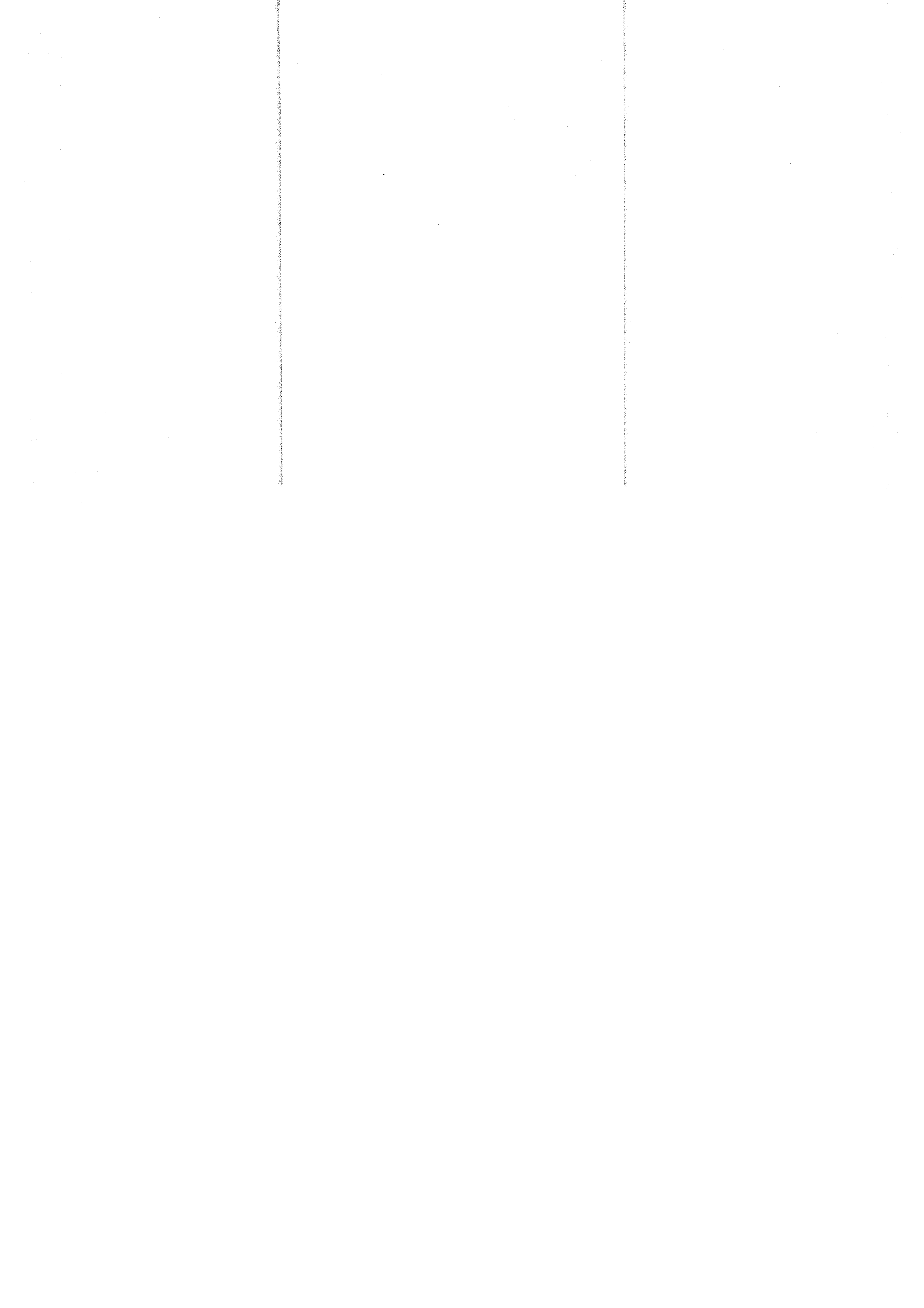
أنت المخلَّق للبكاء
وأنت ينبوعُ السَّفَرْ

ما بين جنبيكَ الفؤادُ مشبعٌ بالجوعِ
ينضبُ ..
فاحتملْ رفعَ الحجرْ
واكتبْ إذا سألوكَ عنك :
ظمئتُ فى يومِ المطر

- ٣ -

لمن الكتابةُ؟
للفضاء أمِ الحريقْ؟
ولمن أهيئُ مهجتىْ؟
للطيرِ أم للغوصِ فى قاع عميقْ؟
أنتَ اشتهيتَ الضوءَ مجدولاً
فلم أبخلْ به .. كلا
ولم أبخلْ بماءْ
جاءت عصافيرُ الجلالةِ من لغاتى
لم يباركها الهواءْ

فاكتبْ إذا سألوكَ عنكَ
سقمتُ من حلو الدواءْ
واكتبْ إذا سألوك عن هذا البلدْ :
أبدًا تضرُّ ولا تسرُّ
وعطاؤها زبدُ الزَّبدْ



أبدا لوجهك

أبدًا لوجهكَ
أن يظل معفرًا بالموت
يلعق من رماد الريحِ أسئلةً
بلا شطين ..
غامضةً ..
يغلِّفُ وجْهَهَا البنىَّ
عصْفٌ ليس ينحسرُ

أبدًا لوجهكَ
والضبابُ يغلّفُ الأحلام
أن يمشى بلا هَدْىٍ
فكل مسالك الأوقاتِ موصدةٌ
يسدُّ أريجُها الحجر

أبدًا لوجهكَ
وارتعاشُ الموت يكبرُ
أن يظلّ مكبلاً بالوهمِ
لا أرضُ تبينُ
ولا سماءُ ترسلُ النجماتِ
لا شمسُ ولا قمرُ

لوجهكَ ملمحى :
ملحُ ..
خرائطُ لامتزاجِ الصمتِ
بالصبرِ الغبىِّ
ولا خروجْ
هذى هى امرأة المياه
تبلُّ صدرك باليبابِ
لترتوى عطشاً !
زمانُك لم يبن بعدُ
اختصر جرحاً وقل
وقتى هو امرأةٌ تهدهد صُبْحَها

تأتى من الغيم المحملِ
باخضرارِ البوح
أو تأتى منَ الوهج الجسورْ
ربما عند التقاء الشدوِ
بالصفصاف تأتى
فاعلن زواجكَ بالنبوَّةِ
وارتعدْ
فالرعدُ أقربُ منْ مواعيد الحصادِ
فقُل : تهبُّ الخيلُ ..
من أقصى جنوبِ القلبِ
تصهلُ :
حُمِّلت هذى البلادُ
بما يباعدُ بينها والطمىِّ
كانت .. .. ..
لا تقلْ
هذى بلادٌ باعدتْ
بين المودة والحليبْ
وازَّينت بالغدرِ

باعت نفسها طوعًا
ومن قُبُلٍ قميصُ النيلِ قُد
ولم تبنْ عند الفراتِ الشمسُ
خاصمنى طلوعُ الصبحِ
أمشى دونما هَدْيٍ
ووجهى عنكبوتْ
والقلبُ من تعبٍ
يمارسُ موتَـهُ اليوميَّ
لا لغةُ الكلامِ تردّ من تنأى
ولا شمسُ البلادِ تبينُ
والسيفُ ينحسرُ
جاهدتُ وسعَ الصبرِ
غرسَ الفلَ فى سهلٍ عليلْ
قاومتُ شوكَ وسادتى
واشتقتُ للموت النبيلْ
فاسمعْ كلامى للأبدْ :
خضراءُ أبهى ..
من بياض النبض فى روح الزَّبدْ

تبدو على بعدٍ قريبْ
قديسةً كالياسمينْ
حملتْ حنين الطمي للوجهِ المعاندْ
يا وجه من أحببتُ عاودْ
وابذر شذاك بملمحى
واسمعْ تراتيلَ القصائدْ :
لى جنةٌ بالأفقِ من حورٍ
ومن أشجارْ
لى أن أجوبَ الحلمَ
يملؤنى النهارْ
لى أن أقاومَ
أن أجاهدْ
يا وجه من أحببتُ عاودْ

خيّرت نفسى بين ضدينِ :
المدى والموت
واخترتُ النخيلْ
شاركتْ أصحابى صباحًا شايهُمْ

في الليل شاركتُ البكاءْ
متعتُ روحي بالشجنْ
وضحكتُ من بيع الوطنْ
من وأد أحلام اليمامة والصبي
من غايتي
كنت اشتهيت الفيئ
حاصرني الجنون
ولصدرِ مَنْ أحببتُ
كنت اشتقتُ
خاصمهُ الحليب
موَّت حُلمي
وانتبهت على جفافِ ملامحي
وركضتُ
كان الخطوُ من شوكٍ يُكابدْ
يا وجه مَنْ أحببت عاوِدْ
يا وجه مَنْ أحببتُ
عاوِدْ

القصائد



رقـــــم الإيـــــداع

٩٨ / ١١٨٠٤

I.S.B.N

977 -5843 -04 - 9